

سقطوا
سعدوا



إبراهيم المحلاوي

www.hotamr.com

سقط سهوا

إبراهيم المحلاوى

رواية

المؤلف :

ابراهيم المحلاوي

مصمم الغلاف :

عمرو الشامي

مراجع اللغوي :

عبد الرحمن والي

إن الحزن يدوم إلى الأبد ...

فان غوخ

- (٠) -

طفل بديل ... هكذا ولدت، ولو كنت أعرف أنى سأكون بديلا ... لو كنت أعرف ذلك لرفضت ... لرفضت ذلك بشدة، وأقمت الثورات، ورفعت راية العصيان.

ولدت بعد سنة واحدة من اليوم الذى ولدت فيه أمى طفلا ميتا، كانت قد اختارت له اسم فاروق لكنه مات قبل أن يصرخ، قبل أن يستنشق غبار العالم الخارجى، رفض رائحة العالم التى دنست كل شىء.

كم تعجبني شجاعة أخى الذى رفض أن يكون عبدا لحياة تصلبه على ظهرها، وقدر أن يتحكم فى مصيره ... كم تمنيت أن أفعل مثله.

* * * * *

الشعور بالقلق ها هو يعود من جديد عندما أستيقظ .. القلق .. شعور يتولد من أفكار بعينها، صحيح أنها تنسى، لكنها تخلف وراءها قلقا غير قابل للنسيان.

جذبت علبة سجائرى الـ "ميريت" من على الكومودينو الصغير المجاور للسرير، جذبت واحدة ثم أشعلتها بعود كبريت، كنوع اعتيادى ومذاق خاص من سيجارة تشتعل بنار عود ثقاب وليس اشتعال غاز كبريه الرائحة، نفثت منها نفسين ورميتها فى المطفئة مشتعلة، قمت من مرقدى أسير نحو الباب فى الضوء المتسرب من النافذة، اتجهت نحو غرفة مكتبى أشعل جهاز الكمبيوتر الذى جلست أمامه، أتذكر ما على فعله.

* * * * *

تدور الكثير من الأسئلة وتتعدد الاقتراحات التى تتطرق إلى الفن التشكيلى، ورغم ترسخ هذه الفنون فى مجالات أوروبا الثقافية منذ قرون طويلة إلا أن البحث فيها ما زال مثيرا للجدل وتثير الكثير من التساؤلات حول معطيات

هذا الفن إلى حد يمكن القول بأن البحث فيها أكثر تعقيدا بعض الشيء من بقية الفنون الأخرى لعدة أسباب أهمها أنها إنتاج فردي حسي - مادي و يبقى كذلك.

وقد يقول قائل إن الإبداعات الأدبية تنطبق عليها هذه التسميات مثل الشعر أو المسرح أو القصة ولكن هذه الإبداعات الأدبية بالإضافة إلى كونها حالة فكرية صرفا تترجم إلى كلمات غير ملموسة يمكن أن تتحول إلى صوت يردده قائل أو قارئ وتتعدد الأصوات وتختلف القراءات وتباين؛ رغم إن الكلمات تبقى كما كتبها مبدعها إلا إن نفس القارئ يضيف لها بُعدا حسيا جديدا أو قد يتبع الشعر لحن ويمتزج به أو قد يضمن مع أبيات أخرى في أشعار لشعراء آخرين أو في أدبيات مختلفة. لذا نجد هنا أن للشعر أو القصة أو المسرح لهم استخدامات تتجاوز إلى حد بعيد مدى استخدامات النماجات التشكيلية، وكما يشترك في بلورتها وصبها في قوالب أخرى كالمسرح أو السينما فنانون آخرون يمارسون فنا يختلف أصلا عن مبدع تلك الأعمال الأدبية (شعر، مسرح، قصة) في حين أن الفنون التشكيلية تترجم فقط إلى (مادة) مصنعة ملموسة ثابتة لا يمكن تحويلها بأي شكل من الأشكال إلى

عمل فنى آخر ويبقى العمل التشكيلى الفن الوحيد الذى عند نضوجه يستخدم فيه الفنان نفس الأدوات والمعالجات والرموز الصورية التى تعكس أسلوب الرسام المصور وتصبح كعلامة واضحة تابعة للفنان.

إن المدارس الفنية التشكيلية رغم قربها من المدارس الأدبية فى الفكر أو المنحى إلا إنها تحتفظ بخصوصية متفردة تشخصها بسرعة العين المدربة. ولقد اختلفت وتعددت تلك المدارس وما زالت تجد قبولا من الجمهور على اختلاف رغباتهم وما زالت تثير جدلا لكل مدرسة عشاقها ..

وبحث الكثير من الفلاسفة عن طبيعة الفن وكيف يجب أن يكون:

ف هيجل يرى:

"إن بمقتضى هذه التصورات على الفن أن يحاكي الطبيعة بوجه عام ... ومن أقدم من قال بهذا هو أرسطو ... حينها حيث كان التفكير ما زال يحبو والبشرية فى أطوار نموها الأولى ... إلا إن هذا التفكير ما زال هناك من يعتقد به ويتبعه ويبرره ... ولكن هذا التعريف والتحديد للفن سيلزم الفن بأن يكون

شكليا فقط لا يرتبط بالذهن والفكرة كما أنه يرينا ما نعرف وما نشاهد كل يوم،
وقد نفذ بكثير من الحدق والمهارة القادرتين على التقليد".

بقلم: فاروق عزام

* * * * *

بأصابع يدي اليسرى أنهيت كتابة مقالى الشهرى لمجلة الفن التشكيلى
قبل أن أرسله عبر البريد الإلكتروني لينشر فى العدد القادم .. لم أذهب إلى
المجلة من قبل، فكل ما يربطنى بها لا يتعدى سوي تبادل الرسائل عبر
البريد الإلكتروني .. فلا أحب أن يرى أحد عيون فنان فاقد الموهبة .. لا
أحب رؤية نظرة الشفقة فى عيون هؤلاء المتطفلين الذين يسألون، كيف
يستطيع أن يعيش هكذا؟

أغلقت جهاز الكمبيوتر واتجهت نحو خزانة الملابس، أغير ثيابى، ثم أحضر
الإفطار، وقبل ذلك كنت قد غمرت وجهى بالقليل من الماء الذى مسحته
بالفوطه المعلقة بجوار حوض المياه.

عندما كنت أرسم لوحة جديدة أعيش داخلها، أمتزج بها، أشعر أننا أصبحنا شيئاً واحداً. لقد شرعت في رسم العديد من اللوحات منذ سنين عديدة إلا إنى توقفت إجبارياً عن ذلك، ولأنى لا أعود إلى مشاهدة لوحاتى بعد إنجازها فإنها تظهر لى مجتمعة، ولا تبدو منفصلة إلا نادراً.

وأكثر ما يضايقنى هؤلاء النقاد الذين يعرفون التفاصيل أكثر منى، يسألوننى دائماً:

- لماذا عملت هذا الشيء أو ذاك؟

ولا أستطيع أن أجيب عادة، إذ يصعب علىّ أن أتذكر ما فكرت فيه عندما رسمت لوحة منذ عشرين سنة .. وبعدها صرت واحداً منهم أصبحت مثلهم تافها، أهتم بأشياء لا علاقة لها بالفن التشكيلى.

كنت أقيم معارض للوحاتى كثيراً، يحضرها العديد من المشاهير فى الفن التشكيلى والمتذوقون بالإضافة إلي النقاد، وأذهب إلى معارض أكثر فى

العديد من دول العالم خاصة روما وباريس، فالدعوات تنهال علىّ سنويا ..
الكل يتمنى حضوري، يتمنى معرفة رأيي، ولا يمكنني أن أتهرب .. فلو
أغمضت عيني لبدا الأمر تذوقا وهيمانا بالإبداع المنقوش على اللوحة.
الآن لا أحد يريد رأى رجل فقد موهبته، وإن كان لم يفقد بعد حس الفنان
الساكن داخله .

* * * * *

الحياة .. أتعرف الحياة!؟

الحياة ممتلئة بالعزلة، والبؤس، والعذاب، والتعاسة، وتنتهي بسرعة البرق ...
لذلك لم أشعر قط بانقضاء الزمن، فهو لم يجد بالفعل بالنسبة لي، وإن كنت
أبالي بالساعات باستثناء ما كان يفرض علىّ من مواعيد ... فأنا دائما أوّمن أن
الأمر سوف تتحسن كلما كبرت في السن ... فأغرب الأمور تدور في رأسي

خاصة عندما بلغت الخامسة الأربعين، وأعتقد أنني أواجه أزمة حياة، أو شيئاً
من هذا القبيل، لا أدري ... أنا لا يقلقني التقدم في السن ... أنا لست واحداً
من هؤلاء الشخصيات.

أثار الزمن بدأت تحط عليّ، بدأ بصلع خفيف أعلى الرأس وقد انتفخ وجهي
قليلاً وبدأ كرش صغير يظهر عليّ وأخذت دوائر سوداء ترسم حول عيني،
أعتقد عندما يصيب الصلع رأسى كلها ستتحسن أمور كثيرة خاصة علاقتي
بليلى فأنا لا أستطيع حتى الآن تقبل هذه الحقيقة ... أننا انفصلنا ... شيء
مؤسف حقاً ... أحاول دائماً غربلة أجزاء من هذه العلاقة في عقلي، لكنني
وبكل أسف لا أستطيع فعل ذلك ...

ليس هناك ما يمنع من أن نفقد بعض الأشياء إلى الأبد ...

بتر معصمى الأيمن ... كان شيئاً مؤسفاً أن تفقد أعز ما تملك ... يدك اليمنى
وموهبتك فى آن واحد ... كان حادث سير مؤلماً وأنا فى طريقى إلى مارينا
للاستمتاع بعطلة الصيف الماضى ... التفت السيارة حول نفسها وسقطت،
وسقطت مع السيارة، صحت من هذا الحلم المفزع لأهش ذبابة وقفت على
أنفى فلم أجد معصمى ... واعتقدت أنه آخر شىء سوف وجود به الزمن علىّ
إلا أننى كنت مخطئاً.

عانيت كثيراً بتلك المعصم الصناعى التى حلت مكان معصمى الأسمى، كنت
أشعر أنه شىء ليس ملكى، شىء طارئ وسرعان ما يزول إلى الأبد. لكن
الأخرى هى التى زالت إلى الأبد على الرغم من التشابه الذى يجمعها
بالمفقودة.

كنت أتمنى حينها أن أكون ذلك الرجل الوسيم القوي الذى تحبه النساء
ويغار منه الرجال، حتى يعوضنى شيئاً عما فقدته.

* * * * *

بأطراف يدي اليمنى الصناعية وبمساعدة يدي اليسرى المطبقة عليها، بدأت
رسم لوحتى الألف أو طفلتى الألف. فأنا أشعر أن كل لوحة أنتجها ما هى إلا
قطعة منى بذلت فيها مجهوداً خرافياً حتى تخرج إلى النور مثل الأطفال
تماماً ... تمسك يدي الصناعية بالفرشاة بينما تساعد يدي اليسرى على
الحركة بإحكام وإبداع ... فدائماً هذا قدر اليد اليسرى أن تقوم بدور الرجل
الثانى، فمهمتها هى تهيئة الأجواء؛ فهى تساعدك فى ربط حذائك لكن لا
تربط بها، تمسك بها الورقة لكن لا تكتب بها، تقطع بها الكرة فى مباراة كرة
اليد لكن لا تسدد بها، هكذا تظل طوال حياتها، أشعر كم هى مضطهدة

دائماً، حتى عندما ماتت يدي اليمنى ظلت كما هي قابضة في رداء الرجل
الثاني، فدور البطولة ليس لها، لم تخلق من أجله.

ببطء سلحفاة وتركيز طالب في امتحان بدأت أضع الخطوط الأولى للوحة.
لم أكن متعجلاً حتى أعرف ماذا سوف أصنع فأنا لست واحداً من هؤلاء
الذين يتعجلون معرفة جنس طفلهم القادم، إلا أنني أعرف أنه سيكون مشوهاً.

* * * * *

لا أزال أشعر كما كنت أشعر وأنا ذلك الصبي النحيف الداكن الشعر الذى لم يتجاوز بعد عامه العاشر الحالم دائما بتغير الأشياء من حوله ومجادلة الآخرين والنضال من أجل أفكاره ومعتقداته.

كنت أملك مخيلة زائدة الحيوية؛ خيالا جامحا يحول أبسط الأشياء وأتفهها إلى رموز معقدة يصعب فكها، يقفز على أحيانا فيدور قليلا، وأجد بعض الصعوبة فى التمييز بين الخيال والحقيقة، وبسبب هذا أخذتني أمى إلى طبيب نفسى. ذهبنا إليه، دخلت معى، وجلست بجوارى على المقعد. كانت العيادة بمجملها فوضوية من الطراز القديم.

وقف الطبيب أمامنا وهو يحمل سيجارة بين إصبعيه وينفث منها على مهل ويستمع إلى أمى وهى تحدثه:

- كان فى حالة اكتئاب ولم يعد باستطاعته القيام بشىء، فقد الكثير من التركيز والاهتمام بالآخرين.

فهز الطبيب رأسه وهو يحدثنى:

- لماذا أنت فى حالة اكتئاب يا فاروق؟

-

أحيانا عندما ينطق اسمى أشعر أنه اسم شخص آخر ... شخص لا أعرفه، ليس لى به أى علاقة.

وكزتنى أمى عندما لم أرد على الطبيب قائلة:

- أخبر الدكتور بما تعاني منه.

ألقيت برأسى إلى أسفل محدقا فى بلاط الغرفة المرسوم على شكل لوحة شطرنج بينما تولت أمى الإجابة نيابة عنى:

- إنه شىء قد قرأه ... أشياء قرأها، فهو مغرم بالقصص والروايات، أفلام من نوعية الخيال العلمى، لقد أفسدته.

نفخ الطبيب غبار سيجارته وهز رأسه وهو يقول:

- شىء قرأه ... ما هو؟

- العالم يتمدد .

قلتها وأنا لا تزال رأسي إلى أسفل محدقة في الفراغ.

ثم كرر الطبيب جملي بامعان، وبدأت أرفع رأسي نحوه وهو يتحدث:

- أتعرف ... إن العالم هو كل شيء وإذا كان يتمدد فيوما ما سوف يتحطم

ويكون هذا نهاية كل شيء.

أنهى كلامه، ولمحت أُمي تنظر نحوي باشمئزاز.. ثم صرخت فيَّ قائلة:

- وهل هذا شأنك؟

ثم استدارت نحو الطبيب متبعة حديثها:

- لقد أهمل كل دروسه وواجباته المنزلية .. ونسى حياته كطفل.

وصدمها ردى الغير مبالى:

- وما فائدة هذا؟

فاستشاطت غضبا وهبت فيَّ وهى تلوح بكلتا يديها قائلة:

- ما علاقة الكون بهذا؟! ... دعك من هذا الخيال وعش على أرض الواقع،
أنسيت! أنت تعيش في مصر ... دعك من هذه الأفلام التي تسيطر على
عقلك إنها خرافات، أفهمت !

أحس الطبيب بواقع الكلمات على فحاول التخفيف عنى:

- فاروق ... لن يحدث تمردا للأرض قبل بلايين السنين ولسوف نحاول
الاستمتاع بينما نحن هنا.
وأنهى كلامه بابتسامة ودودة.

وحاول إفهامى أننى أبالغ فى معتقداتى إلا أننى كنت أبتسم له فهو لا يعرف
شيئا عنى، فهو لم يعيش فى بيت بالقرب من السكك الحديدية، لم يستيقظ
يوما على صوت الصافرة التى يصدرها القطار التى كانت تصم الأذان، لم
يجلس يوما على المائدة يتناول الشوربة ويقراً مجلة ميكى ثم يفاجأ وهو يضع
الملعقة فى فمه بالبيت يهتز وتهتز معه يده فتسكب الشوربة الساخنة على ثيابه
... وإن كنت تأقلمت على هذا الوضع إلا أننى أعتقد أنه سبب عصبيتى
الذائدة.

كما أنه لا يعرف شيئاً عن شكرت جارتنا التي كنت أحبها قديماً، حب الصبا،
كانت على أعتاب المراهقة، أعترف إنها أول امرأة أكتشف جسدها وأرى
مفاتها. أدمنت التلصص عليها وهي تغير ملابسها، كاشفة للحظات عن اللحم
الأبيض الشهواني لجسمها المكتنز، أحملق فيها فاعرا فمي بدهشة، كانت
رؤية تحمل في طياتها كل جاذبية الفاكهة المحرمة ورعب الخطيئة، ومعها
بدأت أعرف ما هو الجنس والحب، وشرعت في كتابة يومياتي أحكى فيها ما
تفعله شكرت في غرفة نومها إلا أنني لم أستمر في ذلك طويلاً فأحرق ما
كُتبت خوفاً من أن يقع في يد أبي أو أمي.

كنت أرسمها عارية، كما كان يظهر لي إلا أنني لم أستطع بث الروح داخلها
فبقت مجرد ورقة بيضاء نحت عليها تمثال لامرأة عارية.

كانت شكرت تأتي إلينا لتساعد أمي في أعمال البيت وأحياناً كانت تجلس
معي عندما تخرج أمي إلى السوق ولا يبقى أحد سوانا، كنت أتلصص جسدها
بحذر وبقلب يرتجف وجسم مرتبك، أتلصص يدها وأنا أتناول منها طبق
الحساء، فخذيتها عندما تستلقى رأسي عليه لأنام، أردافها عندما نتقابل في

فوهة مطبخنا الضيق ... وان كانت لا تبالى بما أفعل وإن كنت أبالى بكل

شىء.

* * * * *

أذهب إلى المدرسة كل صباح كفعل اعتيادى ليس بالجديد أن تفعل ذلك،
أنزوى فى آخر الفصل، بينما تحيط بى أفعال الأغبياء من الطلاب، تبادل
أوراق، نقر بالمساطر، همس لا ينقطع، مضغ لبان، وغيرها ...

جودى؛ صديقتى المسيحية المنمشة الوجه عندما تدخل أنتبه، تتغير
ملامحى، لا أعرف ماذا يحدث لى عندما أراها إنه شعور غريب نادرا ما
يجتاحنى، ولا أعرف كيف فعلت ذلك بينما الجميع منهمك فى متابع
المعلمة؛ اندفعت نحوها وطبعت قبلة على خدها الذى اكتسى بالحمرة
عندما قامت فزعة من مجلسها، وبازدراء حكمت خدها وكأن من قبلها خنزير
قدر.

عدت إلى مقعدى بينما معلمتى تشير إلىَّ بأن أتبعها إلى غرفة الناظر، وهناك

نهرتنى على فعلتى وحمرت يدى بعصاها ولصقت فى جيب سترتى ورقة.

- لا تعود إلا ومعك ولى أمرك.

* * * * *

عدت إلى البيت كان وجهى محتقنا والغضب يجتاح عقلى والغيظ ينبثق من

عينى المحمرتين وقد غادرت كل ملامح الطيبة وجهى لأننى لم أرد على

معلمتى واكتفيت بتأديبها لى ... كنت أود أن أقول لها:

- إننى لم أكن أفعل سوى التعبير عن فضول جنسى صحى.

فالكثيرون يعتقدون أن الأولاد ذوى العشرة أعوام لا تكون الفتيات جزءا من

تفكيرهم، وهذا شىء خطأ ... فهم كل تفكيرهم.

فُتح باب شقتنا، فطالعتنى شكرت جارتنا - هى من تفتح لى الباب - اکتفیت

بالنظر إليها ثم تجاوزتها وسألتها وهى تغلق الباب:

- أين أمى؟

أغلقت الباب واستدارت نحوى قائلة:

- لقد ذهبت إلى أمر مهم ... وقالت لى بأن أبقى لأحضر لك الطعام.

هزرت رأسى فى أسى.

- هيا أذهب إلى غرفتك أبدل ملابسك حتى أجهز لك الطعام.

- لا أريد.

- فاروق ... ماذا بك؟ ما الذى حدث؟

- لا شىء

- ماذا جرى؟

- وقعت فى مأزق فى المدرسة.

- هل أنت بخير؟

- لا

تركتها وجلست أمام التلفاز المضاء ولم أنتبه لما يعرض به، ارتمت شكرت
بجواري محاولة بيدها التي تربت على ظهري أن تخفف عني، ثم علت
زراعها وطوقت رقبتى وألصقت مقدمة رأسها برأسى قائلة بصوت مغلف
بالحنان:

- فاروق ... ما الذى حدث؟ تحدث لن أخبر أحدا ... لا تخف.

-

- ألا تثق بى؟

وضمتنى إلى صدرها الصاعد فى النمو فتناسيت ما أنا به، غمرنى حنين غير
عادى واجتاحنى هوس جنسى جامح، ولما لا وهى أول مرة أتلمس صدر
امرأة غير أمى. جردتها بخيالى من كل ملابسها وتمثلت لى الفتنة التى تطل
من كل شىء فيها؛ أبدأ بساقيها العاريان إلى شعرها المسدل خلفها، سحبت

رأسى من على صدرها تدريجيا، ولم أشعر بما أحدثته إلا بعدما لطمت شكرت
خدى بقوة بعدما طبعت قبلة على شفيتها.

أحدقت فى الأرض وجريت إلى غرفتى وأغلقت الباب، وارتيمت على السرير
أفكر فيما حدث وما سيحدث بعد ذلك. ظللت هكذا شارد الذهن، كنت
أشعر بقلق وخوف ورهبة تأخذنى العديد من السيناريوهات التى رسمها عقلى
وكانت كل نهايتها مفزعة حقا. غمرنى النوم ولم أستيقظ إلا على شىء أملس
يمسح على وجهى وشىء دافئ يلتصق بجبهتى ثم يزول، كنت أعتقد إنه
حلم جميل عندما هممت بفتح عيني فأصابنى شلل فى عقلى وعيني محدقة
فى شكرت التى أتت لتصالحنى على ما فعلت. ما هذا؟ تصالحنى؟ كيف؟! أنا
لم أفكر بذلك، كم هى إنسانة رائعة كما رسمها عقلى دائما.

- فاروق ... أنا آسفة على ما حدث، كانت يدي قوية ... أليس كذلك؟

- ماذا؟ ... أنا من يجب عليه أن يعتذر.

- لا عليك لقد انتهى الأمر ... إنها قبلة أخ لأخته الكبرى.

وابتسمت ابتسامة خلابة بان فيها صف أسنانها العاجية التي تحاكي اللؤلؤ

المرصوص بعناية فائقة. إلا إنني مسحت هذه الابتسامة عندما قلت في أسي:

- الأمر بالنسبة لك انتهى، لكن بالنسبة لي لم ينته، لن أسامح نفسي أبداً،

أتعرفين ماذا حدث لي في المدرسة اليوم... فعلت مثلما فعلت معك.

وفي نهاية اليوم التالي كسرت زراعي بعد مبارزة من جانب واحد إثر علم أبي

بما أحدثته في المدرسة. وإن كنت في نفسي سعيداً لأنه لم يعرف ما أحدثته

مع شكري.

* * * * *

تعود ذاكرتى إلى الوراء فتفسد كل شىء.

ما زلت أتذكر أدق التفاصيل؛ حاولت كثيرا أن أنسى هذه الذكريات لكن لا فائدة، تظل قابعة في هارد عقلى وترفض الحذف. كم تمنيت أن يصيبها العطب.

اجتذبنى صوت أحدهم يصرخ فأفقتى من شرودى وأنا أقف على الكورنيش أتأمل نهر النيل، كان صوت غريق يستعد النيل أن يلتهمه ويأخذه إلى عالمه الساحر، إلا أن ظنى قد خاب بعد ما أنقذه شاب، كان يبدو عليه أنه سباح ماهر، عله بطل أولمبى لم نسمع عنه بعد ...

خبطت يدى بجبهتى متذكرا موعدى مع جيهان، انزلت فى تاكسى قديم متهالك، كنت أشعر أنه ينتظر الفرصة كي ينفجر معلنا تمردة على الحياة القاسية التى يعيشها ...

زواجى بجيهان ها هو يمر عليه أربعة أعوام لكن من يشاهدنا لا يعتقد ذلك؛
فنحن نلتقى مثل العشاق نذهب إلى السينما ونسير على الكورنيش ونجلس
في جنينة الأسماك، عندما نلتقى في شقتنا نلتقى خلسة، بعيدا عن الأنظار
دون أن يشعر أحد، وكأننا نسرق أوقات المتعة الجميلة لنستمتع باللذة ثم يعود
كل منا إلى حياته. فهي تقيم في شقتها الخاصة وأنا أقيم في شقتي الخاصة
والتي تصير شقة الزوجية في بعض الأحيان.

نزلت من التاكسي مهرولا نحو بوابة السينما، كنت أعتقد أنني سأجد جيهان
تنتظرنى لكن كعادة كل بنات حواء الرجال هم من ينتظرون طوال عمرهم
حتى إن بعضهم يظل ينتظر طوال العمر ولا يأتي أحد، ومثل كل رجل وُضع
في مثل هذا الموقف ظللت أطالع ساعتى كل لحظة حتى شعرت بثمالة
الوقت ... لاح طيفها من بعيد وكعادة كل النساء تأتي إليك وعلى وجهها
ابتسامة خجلة وتسوق لك الأعذار؛ من كسر كعب الحذاء، زحمة المواصلات،
وأیضا كعادة كل الرجال تستمع إليها باهتمام وفي النهاية تتقبل الأمر وكأن
شيئا لم يحدث.

جذبها نحو بوسترات الأفلام المعلقة أمام السينما، كانت أفلام عديدة

والاختيار كان صعباً إلا إنني قلت:

- سأدخل هذا.

- نعم! لأنه ليسرى نصر الله.

- لذلك سوف أدخل.

- لن أدخل معك، أنا في حالة نفسية سيئة وليس عندي القدرة على

المشاهدة والتركيز.

- دعك من هذا ... هيا.

- أرجوك رأسى يؤلمنى، هيا نجلس فى مكان هادئ.

- إذا لما أتيت، لا ريب أنك تمرين بعادتك الشهرية.

- أنا لا أمر بعادتي الشهرية .. ما الذي جعلك تعتقد ذلك!

- إذا هيا.

اتجهنا نحو شباك التذاكر، كان يقف أمامنا اثنين اشترى التذاكر ثم غادرا، ثم

سألت موظف الشباك:

- هل بدأ الفيلم؟

- منذ خمس دقائق.

ضربت بيدي على زجاج الشباك:

- يا إلهي، جيهان انسى الأمر لا أستطيع الدخول.

- إنهم خمس دقائق يا فاروق!

- كلا ... لا أستطيع أن أفعل ذلك ... أنت تعرفين إنني لا أستطيع حضور

فيلما في منتصفه.

- منتصفه !!

هزرت رأسي بعلامة الإيجاب وزفرت بقوة :

- سوف تفوتنا العناوين فقط.

- جيهان هل لديك الرغبة فى تناول القهوة لمدة ساعتين ثم نذهب إلى

العرض التالى

- كلا، إنى راحلة.

- انطلقى، مع السلامة.

تركتنى ورحلت ... يالها من امرأة ساذجة لا تعرف أهمية تترات البداية، لا تدرك ماذا تعنى لكل فنان، ومن المفترض أن يعنى لها فهى أيضا فنانة، راقصة باليه، أرقى فنون التعبير الحركى، من يشاهد هذه العروض هم أصحاب الذوق الرفيع لكن على ما يبدو أن من يمارسها ليس من هؤلاء ...

* * * * *

يعاودك فى منتصف العمر اضطرابات مختلفة عن اطمئنان الأطفال، إنه أشبه بالتححرر من الاهتمام الذى يفتقر إلى مرح الصبا، إلا إنه نوع من الحرية.

بمجرد أن تغوص في مقعدك داخل صالة العرض المظلمة حتى تسترخي عضلات الصراع من الداخل وتتحرك من بذل الجهد، من ذلك النضال الذي يفرض عليك في منتصف العمر.

تسترخي وكأنك في الحمام، تستلقي هناك وتستسلم وتكون مدركا أن المياه الساخنة سوف تبرد في دقائق ...

أتذكر، عندما كنت صغيرا، كنت مولعا برؤية الأفلام في صالة السينما، كنت أود أن أخترق قماش الشاشة البالية البيضاء كي أعيش عالم الممثلين ... إلا إنني كنت أكنتم جنوني كي لا أصطدم بالجدار الذي يغطيه الشاشة.

بدأت التترات في الهبوط ومعها بدأ عقلي في التركيز الشديد، والتدقيق في كل ما يظهر على الشاشة، علني أجد فكرة جديدة أضيفها إلى لوحتي الألف.

جذب انتباهي دخول سيدة ترتدي الخمار جلست بجواري، تبدو من ملابسها امرأة فاضلة، غير أنني غيرت رأي سريعا بمجرد أن أخرجت علبة سجائر من حقيبتها وجذبت واحدة وأشعلتها ونفثت بهدوء لتشاهد اللوحة البيضاء من خلف الغبار الذي تنفثه. تملكني شعور غريب ...

أود أن أضرب هذه الوقحة؛ كيف تشعل سيجارة فى قاعة السينما ولا يمنعها
أحد !! كم هى سيدة وقحة !! أعتقد أنها عاهرة أتت لتصطاد فريستها لتغمرها
بحنانها.

طردت هذه الأفكار التى سيطرت على عقلى وبدأت أركز فى الفيلم الذى
فكرت أن أدخله مرة أخرى بسبب هذه السيدة التى أخرجتنى من تركيزى
وفاتنى خمسة مشاهد دفعة واحدة، شىء محزن حقا ...

أظلمت الشاشة وظهرت لوحة سوداء كتب عليها بحروف بيضاء ... فيلم
ليسرى نصر الله.

* * * * *

لفح وجهى هواء بارد فى الشارع المزدهم بالسيارات عندما قررت الهبوط من التاكسى وتكملة رحلة الوصول إلى البيت سيرا، كان الشارع يموج بحركة لا تنقطع، تنتشر فى جميع الاتجاهات على الرغم من أنه يوم عطلة.

أخرجت علبتى الميريت المغلقة، فتحت فتحة لسيجارتين وأخرجت واحدة حشرتها فى طرف فمى مشعلها بعود كبريت، حشرتها بين أصابع يدي اليمنى الصناعية حتى لا أرهق اليد اليسرى، اجتذبت عدة أنفاس متتالية ونفتهم بقوة مكونا غيمة كثيفة من الدخان، ومن وراء هذه الغيمة بدى لى كل هذا؛ ورشة ميكانيكى بها الأسطى يمسك بطفل يعنفه ويعامله بقسوة ويعلمه كيف يمسك بآلة أكبر من حجمه، يدفعه على الأرض ليقع على وجهه وهو ينظر إليه بعينين ناريتين ويتمتم بشتائم موجهة إليه ولأبويه، ليرفع الطفل وجهه وينظر إليه بعيون مكسورة دامعة، شحاذون ينتشرون فى جنبات الطريق يبسطون أيديهم طلب الإحسان، صانع أحذية يجلس خلف صندوق طلائه الذى يطرق عليه بمقدمة فرشته التى يستخدمها فى إنهاء عمله، ثلاثة شبان برفقتهم فتاة يوقفهم ضابط شرطة يطلب منهم بطاقتهم الشخصية، مالت الفتاة

على أذنه وهمست فأشار إلى الشاب بالانصراف ملوحاً بيده بينما اليد
الأخرى تصطحب الفتاة إلى سيارته بينما تلوح الفتاة إلى الشاب "باااى".

سمعت أحدهم يهمس خلف أذني، فتلفت، فلم أجد أحداً، اجتذبت نفساً
أخيراً من سيجارتي ثم فركتها تحت نعل حذائي، ثم أكملت المسير .

* * * * *

إن وطأة الذنب ومقياس الصدفة كبيران.

قتل أبي نفسه، كان ذلك عقب واقعة كسر يدي، كان يعاني من مرض نفسي
يجعله يسير وهو نائم وكان الجميع يعلم ذلك، لكن لم يكن أحد يتوقع أن
يسير على حافة السطح فتتمايل قدماه ويفقد توازنه ويسقط وهو محطماً
إحدى ضلف النافذة الزجاجية المفتوحة، لم أذكر له إلا وهو مطروح أرضاً
والدماء تنزف من أنفه وبعض الزجاج المبعثر حوله وصرخات أمي التي ما
زالت تصم أذني.

* * * * *

لم تكن شقتى فى الماضى ليست سوى مكان فوضى غير منظم يجتاحه
حبات الغبار وخلايا العنكبوت المرتسمة فى زوايا الغرف فضلا عن اللوحات
المتراصة فى كل مكان، أما الآن وبعد زواجى الأخير من جيهان أصبحت
الشقة فاخرة بكل المقاييس مفروشة بدوق رفيع، من النافذة تتأمل المدينة
بأضوائها المتألئة التى ما زالت تتحرك فى الظلام وقد كساها جوا هادئا.

خلعت ثيابى باستثناء ملابسى الداخلية وجواربى ثم اتجهت نحو مرمى
الصغير المرتب دائما بفضلها والذى لا أزال أمارس فيه هوايتى المفقودة
الآملة فى خروج الطفلة الألف إلى الحياة.

أمسكت بالفرشاة بعد ما أغطست طرفها فى اللون البرتقالى وبدأت بحذر
شديد بواسطة يدي المفقودة وبمساعدة الأخرى أكمل ما توقفت عنه،
انهمكت فى الرسم حتى غلبنى النعاس. لم أكن قد رسمت سوى تفاصيل
بسيطة أعتقد أن اللوحة كانت فى حاجة ماسة إليها، تركت كل شىء كما هو

واتجهت إلى غرفة النوم بحثا عن شيء من الراحة. ومع اقترابي سمعت صوت همهمة خافت وتقلب على السرير... كان صوت أحد يستيقظ من النوم، أيقنت أنها هي، فدخلت والنوم في سبيله إلى الطيران من عيني فلم أعد أفكر سوى في شيء واحد، دلفت إلى الداخل فوقفت مبتسما بعينين ينبعث منهما الرغبة، فباغتتني جيهان قائلة وهي تضيء الأباحورة التي بجوار السرير:

- فاروق لماذا تأخرت كل هذا؟ وأين ملابسك؟

لم أرد عليها واندلفت تحت الغطاء منحنيا عليها أقبلها برقة فأبعدتني بيدها:

- فاروق لا أريد.

- لماذا؟

- أنت تعرف أن عندي عرضا غدا وأريد أن أكون في كامل لياقتي البدنية.

- لن أرهقك كثيرا.

- لا.

وكأننى أستسلم للأمر الواقع على الرغم من يقينى أنها ترغب فى ذلك وسوف

تستسلم لو حاولت معها مرة أخرى :

- إذن ... أكملنى نومك ما زال الوقت باكرا على الفجر ... نامى.

استدرت إلى جانبى الآخر وأغمضت عينى ثم سمعت صوت جيهان منخفضا

ينبعث من خلف ظهرى :

- لقد اتصلت بك طليقتك اليوم.

- ليلى.

- عندما كنت فى السينما.

- نعم ... لقد كنت مغلقا هاتفى الجوال ... ألم تقل شيئا؟

- لا ... قالت فقط أن تتصل بها.

توقف الكلام بينى وبينها وبوادر الغيرة تلوح فى الأفق، وشعرت بيدها وهى

تمتد لتطفئ ضوء الأباجورة الخافت وتدفن رأسها فى المخدة، بينما فكرة

الخلود إلى النوم فارقتنى تماما.

* * * * *

ليلى ...

الحنين ... آه من هذا الحنين الذى يأتى كرياح عاصفة تقلب أوراق
الماضى وتسحبك إلى عالمك الحالم. ينتابنى نوع من الحنين نحوها،
إحساس عميق مقلق، ينتابنى كلما سمعت اسمها.

أحدقت فى الضوء المتسرب من النافذة بينما جيش من النمل يزحف فى
رأسى من كثرة التفكير فيما تريد ليلى منى بعد خمس سنوات عجاف.
نبتت فكرة فى رأسى ... كاملة ... ناضجة ... قمت من مرقدى أتحسس
طريقى فى الظلام خارجا ... مغلقا الباب خلفى بهدوء.

* * * * *

أسبلت جفنى ونظرت فى استرخاء إلى اللوحة التى سحبتها من تحت كتلة
من اللوحات المغطاة بأوراق الجرائد ثم علقتها أمامى على الحائط ... فهب
الماضى بغير سبب نبش الجرح الذى فى قلبى وتذكرت عيونها الزرقاء
الواسعة مثل زرقة السماء، أنظر إلى وجهها فى اللوحة القديمة، فقد كنت
أحب رسم وجه لىلى، الوجه الوحيد الذى رسمته كثيرا.

كنت أشعر وأنا أعانق اللوحة بأننى أعانقها هى، أضيف الألوان إلى اللوحة
فأشعر بها تضحك خجلى بالأحمر وترقص بالأصفر وتجلس وادعة بالأخضر
ومتزنة بالأزرق. دائما كنت أرسمها بما يمليه على قلبى، لكن لم يبق لها سوى
هذه اللوحة. فقط أحتفظ بها منذ عشرين عاما.

كانت تبسم فى اللوحة ابتسامة تجعلك لا تلتفت عنها، خصلات شعرها
المتناثرة على جبهتها العريضة قد زادت من جمالها، وهناك روح تختبئ وسط
اللوحة حتى تكاد تسمع بأذنك ضحكة صافية عذبة كصوت الماء البارد
المنهمر من فوهة نافورة أندلسية.

لم يكن هناك فرق يذكر بين تلك الفتاة الرقيقة العذبة التي لم تتجاوز العشرين من عمرها المنقوشة على اللوحة، وبين هذه السيدة التي تخطت الأربعين.

كانت هي بابتسامتها الحزينة الغامضة، كانت بعينها الباحثين عن الحب، لا شيء تغير رغم مرور الأعوام، فقط قليل من الامتلاء، وخفيف الزمن كالنسيم فوق التقاطيع المتناسقة كأنه يخشى على الوجه الجميل من آثاره، ظل الحزن دفيناً، يطل من العينين حزناً غامضاً، حزن تغسله الابتسامة التي تسلت إلى الملامح.

كم أشتاق إليها.

* * * * *

أحلام أم كوابيس ... لا أدري.

كانت صحراء؛ فقط مجرد صحراء جرداء ليس بها سوى زرقة السماء وصفرة
الأرض، بينما كنت أنزلق في باطن الرمال المتحركة في انتظار النجاة.

* * * * *

من أجمل ميزات الحشيش أن المرء يصحو دفعة واحدة أما أكبر مساوئ الكحول أن المرء يصحو بشكل متقطع.

حين رن جرس الهاتف أخرجت رأسى من تحت المخدة ليأتينى صوت ليلى الممتع دائما كما اعتدته :

- هاى فاروق ... أنا ليلى ... هل اتصلت فى وقت غير مناسب؟

لا أتذكر ماذا قلت لها؟ وكيف أنهيت المكالمة؟ إلا إننى أتذكر أنها أرادت مقابلتى فى الرابعة بعد الظهر.

انتظرت كثيرا حتى أفقت من نومى، تذكرت بعض المشاهد الخاطفة من حلم البارحة لكننى لم أهتم به. صداع يستوطن رأسى، تذكرت أننى أسرفت فى تناول الشراب البارحة. فكرت فى أن أنادى جيهان لتصنع لى فنجان قهوة إلا أننى تراجعتم عن ذلك عندما تذكرت أنها مشغولة بعرضها الذى

سيقام الليلة وعليها التواجد هناك من الثامنة صباحا، فلا يمكن أن تظل في البيت حتى الواحدة ظهرا.

أشعلت سيجارة ثم نهضت من مرقدي متجها نحو النافذة ورحت أتأمل البشر والسيارات والأصوات المتدفقة في الخارج. التهمت عدة أنفاس طويلة متلاحقة ثم فركتها بطرف قدمي.

عانيت حتى عثرت على ملابس نظيفة أرديها، أخذتها ودخلت الحمام معلقها على الشماعة المثبتة خلف الباب الذي أغلقته خلفي.

انزلت ملابسى الداخلية من على جسدى الأبيض الممشوق رغم عوامل السن ليظهر شعر صدرى الكثيف ولأجد نفسى عاريا تحت المياه الباردة التى اعتاد عليها جسدى صيف شتاء.

* * * * *

كانت تقف وسط مجموعة من النساء، كنت أقف وسط مجموعة من الرجال.
فى يدها اليمنى سيجارة محشورة بين أصابعها تنفث منها على مهل، أما اليد
الأخرى فكانت ممسكة بكأس من النبيذ الأحمر؛ أنظر إليها، تنظر إليّ،
أتأملها، تتأملنى، تبسم، أبتسم لها، أدعوها إلى الرقص فتوافق على الفور،
تشبك يدها بيدي والأخرى على كتفى فأضع يدي الأخرى على خصرها،
أغرق فى بحر عينيها، فأترك نفسى تغرق، تطوق رقبتى بذراعيها، فتنقذنى من
الغرق فى متاهات عقلى، تتقارب الشفاه وأحدثها:

- ما وظيفتك؟

- أدرس حاليا الهندسة ... وأنت؟

- أنا محاسب ... محاسب متقاعد.

- فاروق ... تحدث بجدية.

- ليلى ... أنا دائما أتحدث بجدية، لكن على الرغم من سنى الصغير فأنا لا

أبحث عن وظيفة جديدة.

- لكن كيف تكسب قوت يومك؟

- الرسم ... أنا رسام. أبيع لوحاتي بشكل جيد. صحيح لم يلمع اسمي بعد
إلا إن الجميع أشادوا بي وبموهبتى. على فكرة، يعجبني ثوبك، يعجبني
اللون ... أفقت من نوبة شرودى فوجدت نفسى على بعد ما يقرب من مائة
متر عن المطعم الذى اعتدنا واتفقنا على أن يظل يشهد لقاءتنا.

* * * * *

لم تكن الساعات التى مرت علىّ حتى قابلت ليلى فى هذا المطعم الإيطالى
سوى ساعات نضال بين حبي القديم ليللى وعشقى الجديد لجيهان، كنت
أشعر أننى أنزلق بسرعة إلى الهاوية. إننى أفكر فيها رغم أنفى. إننى لا
أستطيع منع تلك اللهفة المنبثقة من عيني نحوها عندما انضمت يدها إلى
يدى تصافحنى، طالع كل منا الآخر، شعرت بالحنان والدفء يتدفقان من
عينيهما، وكأننا نلتقى لأول مرة :
- لى لى، أعتذر عن التأخير.

ابتسمت متأثرة بشدة كوني ناديتها باسمها المفضل لديها.

كنا نجلس إلى منضدة صغيرة متقابلين :

- لقد تركتك تنتظريني، كان عليّ الاطمئنان على جيهان قبل أن آتى إليك، فقد كانت بحاجة كبيرة لرؤيتي قبل عرض اليوم، لقد كانت مضطربة جدا.

- هل العرض سوف يقام اليوم؟

- هل ستذهبين؟

- أنت تعرف ... أنا كاتبة أهتم بالكتابة ولست متذوقة لفن الباليه.

- أعرف ذلك جيدا، عندما كنت ترفضين صحبتي إلى مثل هذه الحفلات،

على الرغم من علمك بشغفي بها.

- لقد مر كثير على ذلك.

- خمسة أعوام، أليس كذلك؟

- نعم ...

أتى النادل فتركت لها حرية الاختيار بالنسبة لما أود أن أتناوله :

- ما آخر أخبارك؟

- تمام الحمد لله ... روايتي الأخيرة ترجمت إلى أربع لغات، ومرشحة إلى عدة جوائز.

- مبروك ... أنتِ كاتبة رائعة، وتستحقين أكثر من ذلك.

وضع النادل أمامنا فنجانين، فنجان الشاي الأخضر لي، وفنجان القهوة لها، كما طلبت ليلى بالضبط.

- لقد انتهيت من كتابة رواية جديدة، وبخصوصها اتصلت بك.

- رائعة .. أنعرفين كم رواية كتبتى؟

- هل تهتم الكم.

- نعم .. أنا أسجل كل لوحة أرسمها في دفترى الخاص، وأنتِ يجب أن تسجلي كل رواية وقصة ومقالة تكتبينها، حتى لا تطير من الذاكرة، إنه تاريخك.

- لا أهتم بمثل هذه الأمور.

- هل تودين رأيي؟

- نعم.

قالتها وهي توميء برأسها ثم استطردت قائلة :

- كنت أود ... لو كنت أنت ... من يرسم الغلاف.

* * * * *

ودعت ليلى ملوفا إليها بيدي عندما انطلقت بسيارتها وتركتني في بحر

شرودى محللا حديثنا.

ولماذا الآن تريد رسمى على غلاف من مؤلفاتها، هل تذكرت فجأة أنها كانت

متزوجة لرسام، أم أنه الحنين لترانى، أما زالت تحبني، لكن لماذا تزوجت،

وأنا تزوجت، كان زوجها عِنْدًا ليس إلا، وإلا لما لم يدم هذا الزواج سوى

شهرين!؟

غمرتنى سعادة بالغة وأنا أتوصل أن ليلي ما زالت تحبني، وإلا لما دعتنى؟

وبدأت أنتظر بفارغ الصبر لقاءنا القادم.

لفت انتباهي البوستر الضخم المعلق أمام قاعة العرض الذي يحمل صورة

رائعة لجيهان، ولفت انتباهي الحضور الكبير، دلفت إلى الداخل وجلست

في الصف الأول علي المقعد الذي تحمله تذكرتي، كان العرض على وشك

البدء.

* * * * *

- شكرا للرب، لقد انتهى العرض، كان عرضا غبيا ومملا للغاية، وهى بدرجة لا توصف كانت مخيبة للآمال.

هكذا همست سيدة أعتقد أنها مسيحية إلى زوجها، كانت تجلس بجوارى عندما هبطت الستائر. وأنا أحاول رسم ابتسامة عريضة على وجهى حتى لا تلقى جيهان نظرة علىّ وينفضح مدى ضجرى أنا أيضا من العرض.

لم أكن أعرف ماذا أقول لها عندما دخلت عليها غرفتها إلا إنها أنهت حيرتى بقولها :

- هل أنت جاهز للرحيل.

- أجل.

- ثوانى، على إزالة المساحيق من على وجهى وسوف نذهب.

- خذى راحتك ليس لدينا شيء نستعجل من أجله.

ساد الصمت لحظات ... قطعته قائلاً وأنا أقترّب منها وهى جالسة أمام المرأة

ممسكة بمنديل تزيل به المساحيق بينما أضع يدي على كتفها العارى :

- عزيزتى لم يكن الأمر بهذا السوء فقد فعلتى ما عليك فعله، اجتهدتى ... لم

تقصرى، لذلك يجب أن نحتفل وننسى الأمر.

- لا أعتقد ذلك ... فاروق سأكون جاهزة فى غضون دقيقة لنرحل.

قطعت حديثها قائلاً :

- لقد انتهى كل شىء.

- بالنسبة لك.

- لا بالنسبة لنا، نحن الاثنين.

حاولت التقليل من انفعالى وأنا أنزع يدي من على كتفها وأدور خلفها وأقول

:

- عزيزتى، أنت بحاجة لتدريب كثير حتى تكونى رائعة.

- هلا توقفت عن ذلك الحديث الآن.

دعكت طرف أنفى وحدثتها بهدوء الأب الروحى :

- لا أريد أن يراودك شعور اليائسين أمثالى، الموضوع لا يساوى صدقيني.

- حاضر ... لنكف عن هذا الحديث.

انخفضت حدة صوتى وطغى عليه طبقة من الحنان عندما قلت لها :

- حبيبتى ... لنتحدث بهدوء عما حدث.

فهببت فى واقفة قائلة :

- لقد قلت لك لا أريد التحدث، أفهمت؟

لم أستطع الإحكام على أعصابى وأنا أرد عليها فاندفعت فيها كقطار فُقد

السيطرة عليه :

- لا لم أفهم بعد. فليس ذنبى أن العرض كان رديئاً، من المؤكد أنه ليس

ذنبى أنك لم تصبحتى شيئاً.

- اصمت ... هذا يكفى.

- لا ... لا يكف. أنا لم أعد أصلح لملائمة دور الأخرس الذى يجب عليه أن
يسمع فقط. أنت زوجتى ولى حقوق عليك، أفهمتى؟ فأنت دائما تهتمين
بنفسك فقط ولا تسمعين إلا صوتك.

- لى ما يكفينى، لقد كنت واضحة معك، لا أريد مناقشة شىء الآن.

- حاولت أنا أبدو لطيفا، لكن صبرى نفذ.

- يالك من لطيف! كل الرجال على شاكلة واحدة، قدرون لهم أظافر طويلة
لن يتخلصوا منها أبدا.

هكذا قالتها بسخرية وتهكم.

حاولت أن أستجمع أنفاسى وأسيطر على فمى وأجبر قدمى على الخروج
من هذه الدوامة التى لن تنتهى، بعد ما صفعتها يدى الصناعية، صفعتها على
خدها الأبيض، لتترك آثارها على سحتها، لى تذكرها دائما بى كلما
تطلعت فى المرأة.

أنظر إلى أصابع يدي الصناعية نظرة كارهة لما أحدثته، وحملت الذنب
الذي اقترفته في حق جيهان. كلما أرى أطراف أناملتي أتذكر وجهها الرقيق
الذي طُبع عليه بصمات أصابعي وأسائل :

- كيف تحملت جيهان الضربة؟ هل كُسرت أسنانها وتورم وجهها؟ كم هي يد
ملعونة.

خبأت يدي الصناعية داخل جيب بنطالي حتى لا يقودني الغضب إلى
التخلص منها في أقرب صندوق قمامة فيلتقطها أحدهم فيلهو بها أو يجعلها
لعبة لطفله الصغير.

أفقت من شرودي فأجد نفسي أقف أمام مطعم صيني بينما تدعوني فتاة يبدو
من ملامحها أنها صينية إلى الدخول فطاوعتها ودخلت.

كان المكان بجملته صينيا صرفا في كل شيء، من الزي الصيني القديم الذي
نشاهده في الأفلام الصينية يرتديه كل العاملين الذين يبدو من ملامحهم

أنهم صينيون، إلى رواد المطعم الذى أغلبهم من الصينيين وبعض الجنسيات المختلفة القادمين من شرق آسيا، حتى أنه خيل لى أننى لو خرجت من المطعم سأصدم بأن كل من بالخارج من الصين.

المطعم أنيق إلى درجة كبيرة رغم نظام فرشته العتيق فهو يحتوى على صقان من المقاعد، وست مناخذ فى كل صف، وعلى كل منضدة حامل يحتوى على أوعية زجاجية للملح والتوابل والصلصة، والمكان أيضا مضاء بصورة كافية ومزدحم، تسمع المحادثات واصطكاك الأطباق فوق الحوار، وهناك رجل عجوز يجلس خلف مكتب الحساب لمحته بطرف عينى بينما تقودنى الفتاة الصينية إلى أحد المقاعد التى تشرك أنك فى أحد موائد الرحمن فى رمضان، انصرفت بعد ما أشرت إليها إلى صنفين من الطعام فى القائمة. وما هى إلا لحظات حتى كان الطعام أمامى.

ابتسمت وهى تضع عينها فى الطبق الذى أمامها عندما شاهدتنى أعانى بتلك العصيان الخشبية. كانت امرأة تبدو من ملامحها أنها صينية إلا إننى عرفت بعد ذلك عندما اصطحبتها إلى شقتى أنها من ماليزيا وقد أنت إلى مصر

من أجل الدراسة فى الأزهر إلا إن ضيق الحال قادها إلى أن تكون عاهرة،
اكتفيت بذلك فقط عنها، أما أنا فلم أخبرها شيئاً عن حياتى ولا حتى اسمى.

أدرت المفتاح فى فوهة الباب وكنت أتمنى أن تكون جيهان فى الداخل
وتشاهدنى وأنا أضاجع واحدة غيرها على سريرها إلا إننى كنت على يقين
أن جيهان لن تكون فى البيت بعد الذى حدث اليوم.

دلغنا إلى غرفة النوم فوقفت خجلى فى منتصفها محدقة فى بلاط الغرفة بينما
وقفت على مقربة منها أخلع ثيابى وأشرت إليها بأن تخلع ثيابها فنفذت على
الغور واندست تحت الغطاء وطلبت منى بلكنتها العربية المكسرة إغلاق
الضوء وتشغيل مقطوعة موسيقية لموتزارت فلم أملك شيئاً له فأدرت عوضاً عنه
بيتهوفن، ثم تبعتها تحت الغطاء.

* * * * *

عندما استيقظت لم تكن بجوارى. توقعت أنها سرقت نقودى مثلما يحدث دائما فى الأفلام العربية فخاب ظنى، فلم تأخذ إلا ما اتفقنا عليه وتركت الباقي. فكرت فى نوبة حب جديدة معها.

ألمح الشيش ذا الثلاث ضلف يفتح. تدلف إلى البلكونة فتاة لم تتجاوز بعد عامها التاسع عشر تقف متأنقة بقميصها المفتوح نصف أزراره ليظهر قدر ليس بالقليل من صدرها المكتنز - أتذكر، شاهدتها مرة وهى تغير ملابسها وتتجرد من كل شىء يلامس جسدها الذى تتأمله فى المرآة فتذكرت حبي القديم لجارتى شكرت، جارة الطفولة، فأخذنى الشوق إليها وتمنيت حينها رؤيتها - أراقبها من النافذة الزجاجية، تسوى خصلات شعرها الكارى ثم تحشر سيجارة فى طرف فمها، وتنفث منها على مهل مستندة على حافة البلكونة. فكرت أن أرمى نفسى من النافذة فترانى، تأتى ملهوفة نحوى، وتطوقنى بذراعيها مدفسة رأسى فى صدرها المكتنز.

أسدلت الستائر على النافذة لكن رغم ذلك تتسرب بعض أشعة الضوء التى تنتشر فى المكان. شعرت بالجوع يحتاجنى. فتحت باب الثلجة والتقطت بعض الساندوتشات التى تصنعها دائما جيهان وتركها لى، وزجاجة نبيذ وقفت

أمامها حائراً فى الشراب الآن أم فيما بعد، فلا يزال أثر خمرة البارحة عالق فى
فمى، خطفتها حتى أنهى حيرتى وتحركت نحو السرير، جلست على طرفه
أتناول الطعام الممزوج بشارب النبيذ الأحمر. تعلق بصرى بذبابة تزحف
أمامى على الأرض تتحرك بين برك قطرات النبيذ الذى تساقط من فمى،
أنظر إليها محملاً فى تصرفاتها غير المتزنة بعد أن غفاها السكر، لكزتها بأصبعى
فطارت وتابعت بإحساس متبلد رحلة الذبابة الفاقدة للوعى حتى غابت عن
نظرى.

* * * * *

- (٧) -

أشارت الساعة إلى الرابعة بعد الظهر عندما فتحت لي ليلي باب شقتها، كانت

ترتدى بيجامة نومها التي تختبئ تحت روباها الحريري الأحمر:

- مساء الخير.

- مساء الخير.

- لقد جئت حسب الميعاد.

- أهلا بك ... تفضل.

انطلقت أمامي فتبعتها حتى جلست داخل الأنتريه على مقعد في زاوية الغرفة

فجلست بالمقعد المجاور لها. وتبادلنا كلمات الترحيب المعتادة ثم سألتني:

- كيف تسير الأمور؟

- بخير ... لماذا لا أرى ابنتي؟ أين ذهبت؟

- إنها نائمة.

- لم أرها منذ مدة طويلة.

- ماذا تحب أن تشرب؟

- أي شيء.

- أوكيه.

انطلقت حتى دلفت داخل غرفة وما لبثت غير ثواني حتى خرجت ومعها رزمة من الورق المدبس من طرفه ووضعته أمامي ثم توجهت إلى الدولاب المجاور للنافذة وأخرجت زجاجة من النبيذ الوردى وسألتنى :

- ثلج كما كنت تحب.

- نعم ... أمازلتى تذكيرين !!

وضعت كأسين، واحدا بالصودا لها وآخرها بالثلج لي ثم جلست إلى مقعدها وقدمت كأسا إلى رشفت منه ببطء ثم وضعته أمامي :

- بيتك الجديد جميل جدا، كما كنتي دائما.

- شكرا.

وكانها تخشى فتح موضوع ما حولت دفة الحوار بسرعة البرق :

- هذه هي الرواية التي حدثتك عنها.

قالتها وهي تشير إلى رزمة الورق فالتقطتها بين يدي متأملا العنوان ...

(لحظات يأس)

- العنوان جذاب. بداية جيدة.

- أتمنى رأيك في الرواية بصراحة كما كنت دائما ... أنذكر!

- لن تزعجك آرائى.

- لا لن تزعجنى.

مدت يديها وأمسكت بكأسى ورفعته نحوى وهي تعض شفيتها السفلى بحركة

خاطفة، نظراتها راغبة فى شىء ما. مددت يدي فلمست يدها، أطبقت عليه

لم تفعل شيئا، لم تسحب يدها، لم تصرخ فى :

- أنا مشتاق إليك.

- حقا؟

- نعم.

تبادلنا القبلات بنهم، ثم أخذت بأطراف يدي اليسرى أمسح على شعرها بينما
زرعها يطوقان خصرى.

* * * * *

غصنا فى نوبة حب. تأوهات لا تكف عنها ليلي وتفوهها بالكلمات لا ينتهى :

- نعم ! يا إلهى ! أنا أحب ذلك.

- تحبين دق مسامير الملك.

- نعم ! أنا أحب ذلك، اعطنى مسمارك يا ملكى.

استلقينا منهكين عارئين على ظهورنا بعد ممارسة المتعة التي لم تدم أكثر من

ربع ساعة :

- هذا بالضبط ما كنت أحتاج إليه، العلاج الملكي كما يقولون.

- سعيدة حقا.

- نعم.

اتكأت ليلي على مرفقها وهي تنظر نحوي ثم قالت :

- دعنا ألا نفترق مرة ثانية لا أريد أن أكون بعيدة عنك.

ضممتها إلى صدري قائلا :

- أنا سعيد جدا لأننا عدنا إلى بعض.

- وأنا أيضا.

- أين كانت هذه الرواية من زمان؟ ... وحشتيني جدا.

..... -

فُتح الباب دون سابق إنذار فارتعدنا، دخلت، نظرت إلينا وخرجت مسرعة،

فشعرت بفداحة ما فعلنا. ماذا اعتقدت الطفلة عن أبيها؟

* * * * *

تأتي بي الأفكار وتقذفني مرة أخرى. خلعت ملابسى ووضعت عليها رزمة
الورق التى أخذتها من ليلى بعد ما عدت إلى البيت مسرعا. أحسست بشىء
من البرد رغم حرارة الجو. تناولت فنجان قهوة داخل مرسى الصغير فهدأت
وحدثت نفسى قائلا:

- ماذا اعتقدت الطفلة عن أبيها؟

- لا شىء.

- لكنها رأتنى عاريا مع أمها.

- أنت قلت ... أمها.

- لكن ...

- طفلة لا تعرف شيئا بعد فهى لم تتجاوز عامها الثامن ... أتذكر ذلك؟

حاولت نسيان الموضوع وبدأت أفكر فيما هو مطلوب منى وتذكرت أنهم
شئء المقال الذى أكتبه لمجلة الفن التشكيلى فقررت إنهاؤه. بحثت عن
الكتاب الذى أستعير منه بعض القطع التى أضيفها إلى مقالاتى فلم أجده،
بحثت عنه فى كل مكان ولا فائدة إلا مكان واحد، أدراج مكتبى الذى لم
أجلس عليه منذ زمن بعيد لعله فى أحدهم. فتشت فلم أجد شيئاً لكن لفت
نظرى أن درج المكتب الأخير مغلق فبحثت عن مفتاحه حتى تذكرت أننى
وضعتة ملاصق لظهر إحدى اللوحات.

فتحت الدرج بهدوء فهب الماضى علىّ من حيث لا أدرى ورأيت صوراً
عديدة لى كنت أحتفظ بها لوقت كهذا. كانت صوراً عديدة جمعتنى مع أمى
وأبى وأنا طفل لم يتجاوز عامه الأول، وصورة مع أصدقاء الدراسة، وصورة
لهتلر كنت قد كتبت على ظهرها "مصر فوق الجميع"، وأخرى مع مروة
زميلتى فى الكلية عندما كنا فى إحدى الرحلات التابعة للجامعة.

مروة كانت رسامة بارعة، التفوق التصق بها أينما ذهبت، التفوق فى كل
شئء، حتى كتابة الشعر كانت بارعة فيه. عانيت كثيراً حتى استطعت
التحدث إليها. أنذكر، ظللت أكثر من عامين أفكر كيف يكون الحديث الأول

الذى يظل فى الذاكرة ولا يمحوه الوقت، حتى أتت الفرصة فتمكنت منها
وفرضت شخصيتى عليها.

ياااه... رغم ما مر من سنين ما زلت أتذكر أول قبرة فى حياتى كانت منها؛
أخذتنى بين ذراعيها وقبلتنى، كنت أحلم بهذه اللحظة كثيرا وانتظرتها أكثر.
كان اللقاء فى بيتها داخل غرفتها جلست بجوارى وأنا منهمك فى رسم لوحة
الموناليزا فالتصقت بى ولفحنى زفير أنفها الدافئ، تلامست يدانا فتلاقت
أعيننا وكأنى أحصل على دفعة قوية منها لكى أفعل ما أريد وأتسبب أنا
الموقف، قبلت شفيتها بعنف محركا رأسى من جهة إلى أخرى بشكل شبه
منتظم وخارج عن السيطرة كما يحدث فى أفلام الأبيض والأسود حتى
شعرت بلسانى يلامس لسانها.

جذبنى صوت رنين الهاتف المنبعث من جيبى، كانت ليلى هى المتصلة :

- أهلا ليلى... كيف تسير الأمور؟

- جيدة لكن...

- ماذا؟

- ابنتك ... سلاف لا تريد الذهاب إلى المدرسة غدا ... لقد أعلنت العصيان.

- لماذا؟

- لأنها تود أن تذهب معها غدا.

- أين هي؟

- في غرفتها رافضة الحديث معي.

- لا عليكى، غدا سأكون عندك لكى أصطحبها إلى المدرسة.

- او كيه ... لا تتأخر.

- لا تقلقى.

- باى.

- باى.

* * * * *

عزيزى الأستاذ : فاروق

أعرفك بنفسى

الاسم : جومانة محمود

السن : ٢٢

المهنة : فنانة تشكيلية مثل حضرتك

على فكرة أنت لا تعرفنى ولم نتقابل من قبل، لكن أنا أعرفك جيدا، أعرف كل شىء عنك، حتى زوجتك الفنانة جيهان أعرفها، لقد كنت فى العرض الذى أقيم مؤخرا، كان رائعا. وأعرف عنك أنك أهم فنان تشيلى فى مصر فى الوقت الحالى. أنا متابعة كل كتاباتك فى الصحف والمجلات وعلى فكرة أنا رسمت حوالى ٢٠٠ لوحة من أعمالك، تقدر تقول عنى إننى من أشد المعجبين بحضرتك وبفك الراقى، وبسبب ذلك :

أتشرف بدعوة حضرتك لحضور معرضى الأول سيقام بعد أسبوع. أما المكان فهو آخر مكان أقمت فيه معرضك، وأما الميعاد فهو أيضا نفس ميعاد معرضك الأخير. آراؤك تهمنى جدا ... رجاء لا تخذلى.

جومانة

* * * * *

كان شىء غريب بالنسبة لى أن تأتىنى رسالة عبر البريد الإلكتروني، وأى رسالة، إنها فتاة تدعى جومانة تدعونى لحضور معرضها الأول وتود حضورى، أخيرا تذكر أحد أن هناك فنانا يدعى فاروق عزام.

* * * * *

عزيزتى جومانة

كونى واثقة أن فاروق عزام لا يخذل أبداً معجبيه، خاصة إذا كانت
الدعوة قادمة من فتاة تبحث عن المجد فى الفن التشكيلى. سأكون أول
الحاضرين.

تقبلى تحياتى ...

فاروق عزام

* * * * *

أغلت جهاز الكمبيوتر بعد ما شعرت بالنعاس وعدم القدرة على فتح عينى.
اتجهت إلى غرفة نومى واندستت تحت الغطاء وقبل الغوص فى النوم

أرسلت رسالة قصيرة إلى جيهان أعتذر فيها عما حدث ثم ضبطت منه الهاتف

على السادسة صباحا.

* * * * *

أحلام أم كوايس؟ لم أدري.

قطرات من الدماء تسيل من جفن ابنتي سلاف، تسقط القطرة من جفنها

فتتهادى على خدها - وهي تبتمس - حتى تسقط على طرف حذائها. ويتكرر

هذا كلما أنظر إليها !!

لم أكن أعرف أن الوعد سوف يتحول إلى عادة يومية.

عندما اصطحبت ابنتي سلاف إلى المدرسة ممسكا بيدها حتى الباب إلى أن سحبتها مني، كنت محاطا بأفواج من الآباء والأمهات الذين يوصلون أبناءهم إلى المدرسة ولا أعرف كيف خرج هذا الوعد من فمي عندما ناديت عليها وهي تصعد الدرج :

- سأنتظرك أمام المدرسة حتى ساعة الانصراف.

وبالفعل أوفيت بوعدى.

ظللت جالسا على أحد الدكك الخشبية المنتشرة في المكان. كان إحساس مدفوع من تقصيري نحوها، خاصة عندما حكت لي ونحن في السيارة كيف كانت تشعر بالوحدة في الحفلات المدرسية ولا تجد أحدا يذهب معها في عطلة نهاية الأسبوع، حتى وهي تقوم بفروضها المنزلية كانت تشعر بالوحدة

فلا تجد أحدا يساعدها ويذاكر معها دروسها، فأمها ليست متفرغة لها فهي

مشغولة بكتابتها وندواتها التي لا تنقطع أبدا.

- عندك حق يا بنتى لقد قصرت فى حقك كثيرا.

تركت كل شىء حولى وركزت فى شىء واحد هو ابنتى وكيفية تعويضها عن

سنوات الغياب عنها مع تواصل رسائلى اليومية لجيهان.

* * * * *

أبقى طوال اليوم منتظرا خروج ابنتى من المدرسة لاصطحابها إلى البيت.

انتظارها أتاح لى أن أتأمل ما يدور حولى، أتأمل الناس ومشاكلهم بينما قبل

ذلك كنت لا أرى - إلا فى حدود ضيقة - فرضها السريان العادى للإحداث

التي نعيشها.

أقضى معها الوقت فى قراءة قصص الأطفال واللعب معها والدخول فى

حوارات ومشاكسات لا تنتهى سوى ساعة سقوطها فى النوم.

لقد قادتنى ابنتى إلى مفهوم جديد لمعنى الحياة وأبعادها.

* * * * *

أغلقت ليلى خلفى الباب بعد ما أودعتها بلصق قبلة على شفيتها :

- لا تنسى موعدا ... سأنتظرك.

أومأت بابتسامة، أدرت ظهرى إليها، وقفت إمام المصعد ضاغطا على زرار

الاستدعاء، لم يلبث سوى ثوانى حتى كنت فى الداخل ضاغطا على زرار

الطابق الأرضى (زبرو)، يغلق باب المصعد ويهبط حتى يتوقف.

* * * * *

عدت إلى البيت، خلعت ملابسى باستثناء ملابسى الداخلية والجوارب
كالعادة، جلست أمام شاشة الكمبيوتر أتصفح بعض المواقع الرياضية والفنية
وأطلع ما وصل إلى بريدى الإلكتروني من رسائل وكأننى كنت أنتظر رسالتها
:

* * * * *

عزيزى الأستاذ فاروق

كنت أود أن أذكرك بموعد معرضى، إنه فى العاشرة، والمكان أنت تعرفه

جيداً.

جومانة

* * * * *

عزيتى جومانة

أذكرك موعداً جيداً وسأكون أول الحضور.

فاروق عزام

* * * * *

سيطر علىّ فضول مغلف بالتشويق لرؤية هذه الفتاة التي تراسلني والتي تدعوني إلى معرضها الفني غداً. يا ترى ما شكلها؟ خشيت أن أرسم لها صورة في ذهني فيصدمني الواقع.

أغلقت الجهاز واتجهت نحو مرسمي الصغير أكمل لوحتي التي ما زالت في مرحلة النمو لعلني أنهى على الأقل الهيكل.

ارتعش الهاتف فأعلن وصول رسالة جديدة كانت من جيهان، كانت تود مقابلي الآن فهي على وشك الوصول إلى منزلي، ارتديت ملابسى وانطلقت.

وقفت أنتظرها واضعا يدي اليسرى في جيبى واليمنى الصناعية فى الخارج
وكأننى أعلن لها أنها ليست بحاجة إلى التدفئة. اقتربت سيارة جيهان فى
بطء حتى وقفت أمامى فانزلت داخلها. ظلت السيارة واقفة. كان حديثنا
صامتا تتبادله العيون ويترجمه القلب لم يكسره إلا صوتها المرهق :

- فاروق أنا ... أنا آسفة.

- جيهان لا عليك ... لم يحدث شىء.

- لقد كنت فى حالة سيئة ... لقد أسأت إلى كل من حولى وأنت أولهم، أنا
بجد آسفة. فاروق لا أستطيع أن أعيش بدونك.

- وأنا أيضا. أنتِ تدركين ذلك جيدا، هيا نصعد إلى شقتنا نكمل فيها حديثنا،
لقد اشتاق المكان إليك.

- فاروق ... إننى فى حاجة إالى أن أبتعد بعض الشىء. سأسير بعيدا. أريد العزلة.

- ألم يكفيك ما فات؟

- أريد الانتقال إالى مكان آخر.

- إالى أين؟

- أى مكان أختبئ فيه.

- عزيزتى أنتِ تعيشين فى القاهرة، إنها أشبه بالغابة، غابة هادئة وصاخبة. يستطيع الإنسان أن يختبئ فيها.

- فكرت فى هذا فعلا لكن هل هذا قرار جيد بالنسبة لى؟ فاروق أنا أبحث عن شىء غامض، شىء داخلى.

انطلقت سيارتها وأنا أتأملها لعلها المرة الأخيرة التى نلتقى فيها. صعدت إالى شقتى، جذبنى الفراش فسقطت قتيلا.

* * * * *

ذهبت كالعادة إلى ابنتي، أوصلتها إلى المدرسة وظللت في انتظارها حتى خرجت ثم اصطحبتها إلى البيت وقضيت معها بعض الوقت ثم تركتها بمفردها في البيت، فأما لم تكن موجودة في البيت، كنت أعتقد أنها سوف تطلب مني البقاء إلى أن تعود ليلى لكن هذا الاقتراح لم يكن في تفكيرها على الإطلاق فقد اعتادت على ذلك. ضممتها إلى صدري ثم طبعت قبلة على خديها وخرجت محكما إغلاق باب الشقة خلفي.

* * * * *

عدت إلى البيت، كانت الساعة تقترب من الخامسة، قضيت ثلاثة ساعات ما بين كتابة مقالى الأسبوعى لمجلة الفن، إكمال رسم اللوحة الألف، قراءة

جزء من رواية ليلي الجديدة ومطالعة البريد الإلكتروني الوارد ثم بعثت برسالة إلى ليلي أعتذر فيها عن موعدنا.

اتجهت بعد ذلك إلى دولاب ملابسى وأخرجت بدلة سهرتى لهذه الليلة. كانت تبدو مقرمشة والشنيات منتشرة فيها بصورة مفرعة، فردتها على الطاولة المخصصة للكى متكئا على أطراف البدلة بأطراف أصابعى واليد الأخرى ممسكة بالمكواة ضاغطة عليها بقوة وهى تروح وتجىء.

* * * * *

فى تمام الساعة العاشرة كنت أمام معرض اللوحات فى موعده المحدد بعد ما هبطت من التاكسى، وتذكرت آخر معرض عرضت به لوحاتى، كان يوما رائعا، كان الحاضرون كثيرين مثل اليوم. كنت هادئا، أنيقا، أسير بخطى واثقة، اعتقد أن هذه هى الحالة التى كنت عليها.

لم يكن أحد فى استقبالى فدخلت. كان كل الحاضرين متأنقين، روائح عطورهم تختلط وثيابهم فاخرة. فأحسست برداءة ما أرتديه. لفت انتباهى تلك الفتاة التى توحى ملامحها وملابسها الأنيقة بأنها فى العشرين من العمر منهمة فى الشرح والمناقشات مع الحضور أمام اللوحات، تمر على اللوحات واحدة واحدة تشرحها وتناقش إبداعها بسعادة بالغة.

لفت انتباهى تلك اللوحة، كانت اللوحة لفتاة تجلس على مقعد وهى ترتدى زيا كلاسيكيا يعود إلى بدايات القرن العشرين، ترتدى فستانا أبيض يصل حتى القدمين بينما تضع يديها على فخذيها، أما نظرات عينيها فكانت

تحمل تعبيرا أقرب إلى اليقين، إلى الرضا بما يحدث. ظللت واقفا أمامها
شاردا أتخيل مكانها جيهان وأحيانا كانت تطفو ليلى مكانها وكأننى حائر
بينهما، لكن ليلى لم تعد تلك المرأة الفاضلة التى كنت أحبها، لقد فعلت
الخطيئة معى ونحن منفصلان كيف وافقت بهذه السهولة.

فرغت الفتاة مما فيه ثم دلفت إلى آخر المعرض، تقف أمام إحدى اللوحات
تسوى شعرها بخجل وتضع ذراعيها متقاطعين على الجيبة التى لا تصل إلى
الركبة :

- هل تعجبك اللوحة؟

لا أعرف كيف انجذبت إليها بهذه السرعة، ولا أعرف كيف وقفت خلفها
وألقيت عليها سؤالى :

- فاروق ... أستاذ فاروق.

قالتها والابتسامة تكسو وجهها.

- جومانة .. أليس كذلك؟

- نعم ... أهلا بك أستاذ فاروق ... لقد أسعدنى وجودك.

- أنا الأسعد ... لأنك منحتينى فرصة لن تعوض، لقد أعجبني المعرض.

اللوحات رائعة. أنت فنانة حقيقية.

- إشادة أعتز بها. هذه أول شهادة أنالها من أستاذ كبير مثلك.

- ليست إشادة إنها الحقيقة. لقد عبرتى عن أوجاع المجتمع بأسلوب راقٍ

وغير مبالغ فيه.

* * * * *

انقضى الوقت بسرعة كبيرة، وهممت بالخروج، جذبت سيجارة من علبتى

وأشعلتها وجذبت نفسا، وقبل أن أهم بالإشارة إلى تاكسى جاءنى صوت

جومانة، عندما شاهدتني استدارت نحوى قائلة :

- تصبح على خير.

- وأنت أيضا.

- حسنا ... إلى اللقاء.

قالتها ويدأها متشابكتان أمامها وتبتسم.

فتنحنت قائلاً :

- أنتِ ترسمين بشكل جيد ... جيد جداً.

- وكذلك أنت ... أنت مثلى الأعلى.

- أترغبين بتوصيلة.

- أ .. أ.. أنت معك سيارة؟

قالتها وهي تضع سبابتها على فمها.

- كلا ... كنت سأخذ تاكسى.

- هههههه ... كلا أنا أملك سيارة، أترغب أنت في توصيلة.

- كنت أعتقد أنك أنتِ التي تريدين توصيلة، كان منظرِك يوحى بذلك.

- عندى هذه السيارة الصغيرة، إنها هناك.

قالتها وهى تشير نحو سيارة اسبيرانزا فضية اللون.

* * * * *

أنزلت الزجاج ضاغطا بسباتى على زر هبوط الزجاج إلى أسفل، بينما

انطلقت جومانة بسيارتها بهدوء :

- كان لدى سؤال، أتمانع؟

- كلا ... تفضلى.

قلتها والابتسامة تملو الشفاه.

- لماذا لا تمتلك سيارة؟

- لدى بعض المشاكل مع القيادة.

- حقا.

- نعم ... أنا أمتلك رخصة لكن ... عندى الكثير من السرحان أثناء القيادة.

حبيبي فاروق، أعلم أنك تحبني على الرغم من التوتر الذي ساد علاقتنا.
وأعلم أنك قادر على الصمود بدوني. كن قويا يا عزيزي كما عهدتك دائما
... إلى اللقاء.

جيهان

نفر الدم في عروقي وارتعشت أصابعي، وأنا أقرأ رسالة جيهان التي بعثت بها
لي على الهاتف.

كانت الساعة تشير نحو الثانية عشرة والنصف عندما صعدت سلالم البناية التي
تسكن فيها جيهان ودسست المفتاح في فوهة الباب، وأدركته بسرعة لأتجمد
برهة من الزمن وأنا أتأمل الغرفة التي بها جيهان، كانت غرفة عارية وملابس
نوم مهملة وفتاة ذات شعر أسود ملقاة على الأرض بجوارها الهاتف :

- جيهان ... جيهان ... ماذا حدث يا حبيبتى؟ ماذا فعلتى؟

ارتميت عليها، ضممتها إلى حضني وأنا أردد اسمها، وما أن رفعتها إلى صدري
حتى وجدت شريطاً من الحبوب فارغاً، مسحت على شعرها وقد تصبب العرق
من كل أجزاء جسدي وأنا أردد :

- يا لك من مجنونة ... ماذا فعلتي؟ جيهان أجيبني؟

أمسكت هاتفها بيدي المرتعشة واتصلت بالإسعاف.

- لا تخافي ... تماسكي ... سوف أنقلك من هنا ... لكن لماذا؟ أخبريني ..

أنتِ مجنونة، هل تريدني تحطيمي؟

حملتها وخرجت بها إلى الشارع أنتظر سيارة الإسعاف.

- في المرة القادمة سأتركك تموتين ... أفهمتي؟

* * * * *

بعد ساعة كانت جيهان راقدة فى إحدى الغرف الخاصة بعد ما خرجت من
غرفة العمليات وقد مالت بوجهها تجاه الباب لتصدم العيون ببعض، كان
يبدو عليها الحزن والإنهاك .

الطبيب : لا داعى لإرهاقها، تستطيع أن تعود بها إلى المنزل بعد ساعتين.

جلست بجوارها وقد بدا عليها التأثر الشديد، لقد حاولت الانتحار وأعلم أنها
غلطتى :

- جيهان ... حمد لله على السلامة.

لم تنظر نحوى وأنا أحدثها ... أمسكت يدها ثم قبلتها :

- جيهان ... لما فعلتى هذا؟

حركت رأسها الي الاتجاه الاخر لتخفى وجهها وتبدأ فى بكاء صامت.

* * * * *

عدت إلى البيت في تمام الرابعة صباحا بعد ما أوصلت جيهان إلى منزلها
واطمأنت عليها.

استلقيت على السرير واضعا يدي تحت رأسي، بعينين مفتوحتين تحدقان في
السقف أسترجع أحداث هذا اليوم الغريب الذي بدأ بفرحة وانتهى بدمعة.
ظللت هكذا حتى أخذني النوم.

كانت هي ... جيهان ... تجلس على حافة بحيرة صغيرة، تغوص أطراف
أقدامها في الماء بينما وجهها مخبئ خلف يديها يخفي دموعها، بينما كنت
أنظر إليها من الضفة الأخرى، غير مدرك ما الذي عليّ فعله.

استيقظت على صوت الرسائل الواردة إلى هاتفي :

- أبي ... لماذا لم تأت هذا الصباح لكي توصلني إلى المدرسة؟ لقد
انتظرتك كثيرا. أتمنى أن تكون بخير ... سلاف.

- أستاذ فاروق لا تنسى موعدنا. أنا أنتظرك في البيت. رجاء لا تتأخر ...
جومانة.

- أستاذ فاروق فى الرابعة من مساء اليوم موعذك مع الدكتور مجدى، رجاء لا تتأخر.

كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة فلم يكن أمامى الكثير حتى أنناول الإفطار، فاكفيت بكوب من الشاى الأخضر. اتجهت إلى خزانة ملابسى وارتديت قميصا أبيض بياقة ينتهى داخل بنطال أسود من القماش وغاصت قدمى داخل حذاءى الأسود المدب.

* * * * *

فى الرابعة وخمس دقائق كنت ممددا على المقعد الطويل فى عيادة
الطبيب النفسى وثمة موسيقى خفيفة تتردد حولى وإضاءة خافتة تنبعث فى
المكان والطبيب يجلس بجوارى يسجل كل ما أقوله فى دفتره الصغير ناظرا
فى وجهى منتبها لتعبيراتى :

- أعتقد أن هذا ما حدث ... أو...

- أكمل ... لماذا توقفت؟

- لم يعد عندى ما أقوله.

- كيف؟ أنت لديك الكثير.

- من قال ذلك؟

- أنت.

- أنا لم أقل شيئا، أتشكك فى قدراتى العقلية.

- لا ... فقط شعرت بذلك.

- شعورك ليس صادق.

- من قال ذلك؟ أنا أشعر بك ... فساعدني حتى أستطيع مساعدتك.

- ليس عندي شيء أقوله الآن.

- في مثل حالتك يحاول المريض أن يهرب من الواقع ومن مواجهة الحقيقة. أعلم أنك شخص قوى وعندك القدرة على الخروج من هذه الحالة وأعلم أنك هنا لكي أساعدك فيجب أن تساعدني.

- صدقني ليس عندي ما أقوله.

- ليس هناك مشكلة. نحدد ميعادا آخر.

* * * * *

قلب هذا الطبيب المواجه علىّ وغير مزاجي تماما بكلامه الغير مسؤل.
لماذا يريد أن ينبش في الماضي دائما؟ لكنه محق في كل كلامه، لقد ذهبت

إليه طالبا المساعدة وهو يقوم بواجبه على أكمل وجه، أنا الذى أرفض
مساعدته. كم أنا شخصية عنيدة لا تعرف ماذا تريد.

أفقت من نوبة شرودى فوجدت نفسى واقفا أمام إعلان ضخيم موضوع على
وجهة إحدى الصيدليات "هنا تباع الفياجرا".

* * * * *

هناك الكثير من الكتب واللوحات الموضوعة على الحائط الأبيض. هذا أول
شئ لفت نظرى عندما استقبلتنى جومانة داخل شقتها وقادتنى إلى الأنتريه
حيث جلسنا :

- ماذا تود أن تشرب؟

- أى شئ ... مثلما تحبين.

قامت من مجلسها واتجهت نحو البار تعد كأسين فلاحظت فستانها القصير
الرمادى المشجر بالورود من نفس اللون دون أكمام والصدر مستدير تحليه
شراشيب طويلة تبدأ من فتحة الرقبة المستديرة حتى أسفل الوسط، أما

شعرها فكان مدرج وهو الشعر بين بين، فبعض خصلاته طويلة والبعض الآخر

طويل محيط بالوجه، أنت تحمل كأسين فتناولت واحدا :

- أتعرفين ماذا أريد أن أفعل الآن؟

- ماذا؟

- أريد أن أرسمك، أرسمك وأنت هكذا سعيدة، فوجهك من الوجوه النادرة

التي تشعرني بالسعادة. أتحبين فان جوخ؟

- لماذا تسأل؟

- لاحظت أن معظم لوحاته منتشرة في أنحاء الشقة.

- نعم .. فان جوخ مثلي الأعلى وقصة حياه مثيرة للشفقة والألم.

- لكنه شخصية متقلبة و ...

أشرت بأصابعي إلى ناحيتين من رأسى موضحا أنه كان مجنوننا.

- لكنه رائع فى التعبير عن ما بداخله. أنا أستشعر ذلك من لوحاته.

- تعرفين أنه قطع أذنه اليسرى بواسطة شفرة حلاقة وقدمها هدية لحبيبته.
منتهى الجنون.

- بل قل منتهى التعبير عن الحب.

- هناك الكثير من الرجال لا يستطيعون التعبير عن حبهم على الرغم من أنهم
أكثر رومانسية من آخرين.

- أتفق معك. لكننى لا أحب الرجل الخجول.

- هذا ليس خجلا ... إنه وقار وهيبة. الرجل اعتاد طوال عمره أن يكون هو
القوى. هو من يدافع وينتصر. لكن فى الحب الرجل يكون ضعيفا، ضعيفا
جدا وهذا ما لا يقبله الكثير من الرجال. لذلك أحيانا يصعب عليه أن يعبر عن
حبه حتى لا يقلل من شأنه.

- ليس مبررا مقنعا. المرأة لن تذهب إلى حبيبها وتقول له أحبك، هو من
يجب أن يبادرها.

- أرى أنك أخذتى الموضوع بعصبية. أكملى كأسك، أنا لم آتى إلى هنا من
أجل النقاش بل من أجل الاستمتاع .

- نعم علينا أن نستمتع.

فرغت الكؤوس. فقامت جومانة وأحضرت الزجاجة وسكبت لى ولها وقد بدأ

أثر الخمر ينتشر فى عقلى.

- أتعرفين؟

- أعرف ماذا؟

- أنتِ شديدة الإثارة.

- كلا... أنا لست كذلك.

- أنتِ منحرفة بأشكال متعددة... مثيرة جنسيا بشكل غير عادى.

- ماذا تقصد؟

- أنتِ خارقة فى السرير... تملكين السعادة فى كل جزء من جسدك.

-

أمسكت بذراعيها واقتربت من أنفها واضعا قبلاات عدة ابتداء من جبهتها نزولا
إلى شفتيها :

- لا أنكر أنني معجبة بك، لكن هل تحبنى؟

- الإعجاب بداية الحب.

- أعرف أنك عرفتني من فترة قصيرة، لكنني أعرفك من زمن طويل.

لغفت زراعى حول رقبتها وقبلتها، أقبل أجزاء من عنقها وهى تقبل مواضع
من رأسى إلى أن تتقابل الشفاه فنغوص فى قبلة حارة طويلة لم تعنى لى
سوى الاستسلام التام للذة. رفعتها مفرودة على زراعى إلى غرفة نومها.

* * * * *

بعد نصف ساعة أسندت ظهرى إلى السرير بينما جومانة مستلقية برأسها على
صدرى صامتة يهبط صدرها ويعلو وأطراف أناملها تداعب بطنى :

- لقد أزحتى عنى مشاكل كثيرة كنت أفكر بها. أنتِ رائعة.

رفعت عينيها مبتسمة من حديثي، ثم أمسكت يدي وقبلتها من بطنها.

- أنت كذلك آنستى أشياء كثيرة.

- أتعرفين ... أنت تثيرى إعجابى، لا أعرف كيف توفقين بين الرسم

والسياحة؟

- ببساطة الرسم لى هواية ليس أكثر أما السياحة فهى مصدر قوتى.

- لكنك موهوبة فعلا، من الممكن أن تكونى فنانة كبيرة ذات صيت عالمى.

- لا أهتم بذلك ولا أنظر إليه.

- إذن ... لماذا قمتى بعرض لوحاتك؟

- لكى أراك.

- هههههه ... كان يمكنك أن تتصلى بى أو تبعثى لى برسالة على الإيميل،

ولا تغرمين كل هذه المصاريف.

- عندما تفعل شيئا جيدا بعد ما بذلت به مجهودا خرافيا تشعر فى لحظة ما

أنك فى حاجة إلى كلمة شكر، هل شعرت بهذا الإحساس من قبل؟

وكأنى أتجاهل سؤالها، مددت يدي نحو بنطالى الملقى بإهمال على الأرض

بجوار السرير وأخرجت علبة سجائرى :

- أتريدىن سىجاره؟

- ولما لا ... اعطنى واحده ... لكن أشعلها بنفسك.

نفذت رغبتها وأشعلت سىجاره ونفثت منها ثم وضعتها بين شفيتها. ثم أشعلت

واحدة أخرى لى :

- أتعرف، حاولت كثيرا التغلب على تلك الرغبة فى التدخين والتلذذ بنفث

الدخان فى الهواء عقب ممارسة الحب.

- أعتقد أن الجميع يفعل ذلك.

- عندما كنت فى سن صغيرة كنت أسرق السجائر من علبة أبى وهو نائم

وأنفثها فى غرفتى فى الظلام الدامث. كانت لحظات مسروقة جميلة جدا.

أتعرف كان أبى يضربنى على وجهى إذا لم أرتجف تجاه ذكر الله.

قالت جملتها الأخير بنبرة يائسة، وكأنها تتذكر الآلام، فحاولت تغيير الأجواء.

- ألا تذهبين إلى العمل؟
- أذهب، لكننى اليوم بقيت لكى أنتظرك.
- لماذا تعطلين نفسك من أجلى؟
- لا داعى لذلك، أنت عندى أهم من أى شىء.
- ما طبيعة عملك؟
- أنولى العلاقات العامة، تنظيم برامج الأفواج، مواعيد وصول ومغادرة السياح، مشاكلهم، أى شىء يقف عائقا أمامهم.
- ههههه ... أنت تبذلين جهدا خارقا فى العمل.
- ألا تود السفر إلى أى مكان داخل مصر.
- اممممم ... لا أدرى، لكننى أخطط إلى قضاء الصيف فى مارينا. هل ذهبتى إلى هناك من قبل؟
- كثيرا ... أعتقد أننى أستطيع مساعدتك.

- كيف؟

- أستطيع توفير لك محل الإقامة، كم شخصا سيكون معك؟

- اثنين.

- اثنين!

- نعم ... جيهان وابنتى سلاف، لقد قصرت فى حقهم كثيرا، أشعر بالذنب نحوهم، خاصة جيهان التى حاولت الانتحار بسببى.

- الانتحار!! متى حدث ذلك؟

قالتها وقد بدا الاهتمام عليها.

- البارحة، كان موقفا صعبا، صعب للغاية.

* * * * *

لتأنيب الضمير سريان يجرى فى الدم فيحول الجسد إلى مادة هالكة لا تقوى على أى شىء.

على ضفاف النيل وجدت نفسى فى هجعة الليل، بدأ حوار ضميرى الساخط على أفعالى، حينما يتحدث إليك الضمير فغالبا تستمع إلى عواصف رعديّة وليس إلى نعمات موسيقية ... لم أستطع الذهاب إلى المنزل قبل أن أطمئن على جيهان، فقد سبب حديثى مع جومانة عنها ثورة داخلية، لا أعرف كيف تركتها حتى كادت أن ترحل عنى، ترحل إلى الأبد. ألا تدرك أننى لا أستطيع تحمل ذلك.

* * * * *

عندما فتحت جيهان باب شقتها لم أدرى بنفسى إلا بين أحضانها بينما شفتاى

تلتهم شفتيها وهى تبادلنى نفس الإحساس فى حنان بالغ. ابتعدت عنى قليلا

وهى تنظر إلى عيني وأنا أنظر إلى عينيها ثم قلت :

- لقد أصبحت أحسن كثيرا من البارحة.

- الحمد لله ... لقد أزعجتك كثيرا.

- لا تقولى ذلك. المهم أنك ما زلتى أمامى.

- أعتذر عن كل ما حدث، لقد كنت

وقبل أن تهيم بإكمال حديثها كانت شفتاى تسكتها وتمنعها من الحديث لأعبر

لها عن أن هذا الحديث لا قيمة له طالما أننا مع بعضنا البعض.

* * * * *

كنت أستلقى بجوارها عندما أسندت جيهان ظهرها إلى السرير وفى يدها

سيجارة مشتعلة ونفثت منها بقوة، فركت عيني، ثم قالت :

- لا أعرف لماذا استغرقت كل هذا الوقت حتى أنتشى.

- لقد كنتى رائعة، لقد بدأت أستعيد الاحساس بكِ.

انقلبت على جنبها الأيمن مستديرة نحوى ثم قالت :

-مارسة الحب معك تشعرنى بالأمان.

- ومعكى تشعرنى بالدفء.

أدارت وجهها بعيدا عنى وكأنها تخشى أن تلتقى أعيننا ثم قالت :

- فاروق ... أنا آسفة عن كل شىء سببته لك، لقد كنت أنانية.

- جيهان ... لقد انتهى الأمر، لا داعى أن نناقشه، لقد انتهى الأمر تماما.

جذبتها إلى صدرى واضعا وجهها فوق كتفى ثم قلت :

- دعك من هذا الحديث، لقد أحضرت لك مفاجأة.

- بجد ... ما هى؟

* * * * *

أخبرت جيهان بخطتى لقضاء الصيف أنا وهى وابنتى سلاف فى مارينا وبدت
سعادة غامرة على وجهها كأنها كانت تنتظر هذه الرحلة بفارغ الصبر حتى
تناسى ما حدث لها.

عدت إلى البيت بعد الظهر، كان ظهر يوم الجمعة، هبت علىَّ فارحة عارمة
عندما تذكرت أن هذا اليوم هو يوم ميلاد ابنتى سلاف. بعثت إليها برسالة
على الهاتف أخبرها فيها بأن تنتظرنى بعد العصر سوف آتى إليها.

* * * * *

تترأى المدينة فى أروع حالاتها، ها هى الشمس جميلة ذهبية تبدأ فى
المغيب، تبدو كنيان استقرت فى باطن السماء ثم هدأت، تضيف بريقا آخر
إلى هذه السماء الزرقاء، تضيف جاذبية غير معروفة السبب.

تتحرك عيني إلى أسفل ببطء مصورة تبحث عن نقاط الجمال لتظهر المدينة التي نعيش بداخلها. كانت مزيجا متألئاً من أنابيب الاختبار الصغيرة تسير بسرعة ملحوظة والأبنية المربعة الصغيرة جدا والمتكتلة هنا وهناك وكأنها وضعت على سطح خريطة جغرافية، أما الظلال فكانت متساوية مع الأرضة والتي تشير إلى وجود المحلات والمطاعم.

لم يكن ما سبق سوى ما شهدته وأنا على قمة برج الجزيرة ومعى ابنتى سلاف التي اقترحت فكرة الذهاب إلى هناك. فكانت على صواب.

تناولنا الغداء فى إحدى المطاعم المطلة على النيل ثم بعد ذلك اتجهنا إلى السينما وجلسنا نشاهد فيلما من أفلام ديزنى والفاشار يندفع إلى فمنا ويتساقط منا غفوا ونحن غير قادرين أن نمسك أنفسنا من شدة الضحك. كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها فيلما بعد بداية، لا أعرف لما لم أتكدر من ذلك ولا أعرف لما لم ينتابنى إحساس الحزن لأننى أشاهد فيلما بعد بداية بعشرة دقائق.

كنت سعيدا جدا بهذه الفسحة التي أعادتني إلى الحياة مرة أخرى جعلتني أفكر فيها بنظرة طفلة لا تنتظر منها شيئا. كيف استطاعت تلك الصغيرة أن تغير

من طابع أبيها بهذه السرعة؟

يا ليتك كنتِ فعلتي ذلك من زمان.

* * * * *

ظللت أسترجع هذه الفسحة الرائعة مع ابنتي وأنا جالس أمام لوحتي الألف أحاول إنهاؤها. لقد أعطت لي ابنتي شحنة هائلة. ها هي اللوحة قد اقتربت من ميلادها السعيد لتجاوز ٩٩٩ لوحة قد سبقتها ولأنهي حياتي بها. بعد نصف ساعة من الزمن كنت أكتب عليها تاريخ الميلاد.

قمت من مقعدى أبحث عن ورقة جرائد أعطى بها اللوحة حتى لا تراها جيهان عندما تعود إلى البيت إلى أن أحضر الطريقة المناسبة لكي أفاجئها بها.

كانت جريدة موضوعة بإهمال خلف أحد كراسى الأنتريه، كان طرفها ظاهرا
بوضوح، لا أتذكر أنني قرأتها من قبل، اجتذبتها وعريتها من صفحاتها الأولى
والأخيرة الممسكة بها، ثم ذهبت إلى لوحتي أطوقها بها بكل اهتمام وسعادة
فجذب عيني مانشت الصفحة الأولى :

"نجاه الفنان التشكيلي المعروف فاروق عزام من حادث تصادم، ومصرع
زوجته وابنته".

صارت رعشة تسرى في جسدي وأنا أقرأ الخبر الذي كان ملخصه : أنني
تعرضت إلى حادثة وأنا ذاهب إلى قضاء الصيف في مارينا وأن زوجتي
جيهان وسلاف قد ماتا.

نظرت إلى تاريخ النشر فكان من عام مضى فسرعان ما ارتسمت ابتسامة
ساخرة على وجهي وأنا أتذكر أنني لم أسافر إلى مارينا بعد وأنني أودعت
ابنتي أمام البيت قبل قليل أما جيهان فقد كنت أحدثها في الهاتف من ساعة
تقريبا. كيف وصل بهم الأمر إلى فبركة كل هذا؟ لكن، كيف علموا أنني
أنوي قضاء الصيف في مارينا. لففت اللوحة ووضعتها وسط اللوحات المتراسة
فوق بعضها، وأخذت أسخر مما قرأت، لفت انتباهي عدة كتب متراسة فوق

بعضها موضوعة بجوار اللوحات، فأزحت عنها الغبار بظهر يدي ورحت
أستكشفها، كانت كتبا في التصوف والشعر وروايات متنوعة لكتاب شباب، لفت
نظري هذا العنوان "لحظات يأس"، ليس العنوان فقط بل والغلاف أيضا
الذي ما هو إلا صورة مصغرة من لوحتي الألف وعليه توقيعى، حتى الإهداء
... "إلى زوجي العزيز الفنان فاروق عزام ... ليلى"

قرع جرس الباب فكانت ليلى ترتدى فستانا أسودا وقد غطت رأسها بطرحة
من نفس اللون ممسكة بحقيبة ضخمة، هممت بسؤالها :

- ما الذى أتى بكِ إلى هنا؟ ألا تعرفين أننى متزوج وأحب زوجتى؟

- فاروق ... ماذا بك؟ أنا زوجتك، أنسىت بهذه السرعة؟

- زوجتى !! كيف !! لقد طلقتك، ألا تذكرين هذا؟

تخطت بقدميها عتبة الشقة وأغلقت الباب ثم قالت :

- نعم أذكر. لكنى زوجتك من أربعة أشهر فقط، لقد عدنا إلى بعض.

- وجيهان.

- رحمها الله.

- ماذا تقولين !! أتصدقين ما نُشر في هذه الجريدة؟ أنا فقط من كان في المشفى، أنسيتي، حدث هذا العام الماضي، فقدت يدي اليمنى وركبت بدلا منها واحدة صناعية وأنها تعمل بنجاح.

قلتها وأنا أشمر عن ساقى الأيمن حتى تتراءى إلى ليلى.

- فاروق ... تماسك، تماسك حبيبي، لقد مر عام، أعلم أن الدرس كان قاسيا، قاسيا جدا لا يتحملة أحد.

وضمنى إلى حضنها ثم راحت في نوبة بكاء حاد بينما كنت أهدق في صورة ابنتى سلاف وجيهان المعلقتان أمامى وقد طوق أطراف الصورتين شريط أسود غير مدرك لما حدث.

تمت

أكتوبر ٢٠٠٩

ابراهيم المحلاوي

www.alkottob.com